

بسم الله الرحمن الرحيم
المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير
سورة آل عمران (٢٠)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.
قال المفسر -رحمه الله تعالى-: "وقوله تعالى: **{وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ}** [١٢٦] سورة آل عمران] أي: وما أنزل الله الملائكة وأعلمكم بإنزالهم إلا بشاراً لكم وتطيباً لقلوبكم وتطميناً، وإلا فإنما النصر من عند الله الذي لو شاء لانتصر من أعدائه بدونكم ومن غير احتياج إلى قتالكم لهم، كما قال تعالى بعد أمره المؤمنين بالقتال: **{ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ* سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ* وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا لَهُمْ}** [٤-٦] سورة محمد] ولهذا قال هاهنا: **{وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ}** [١٢٦] سورة آل عمران] أي: هو ذو العزة التي لا ترام، والحكمة في قدره والإحكام".

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:
فقلوه -تبارك وتعالى-: **{وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ}** [١٢٦] سورة آل عمران] الحافظ ابن كثير -رحمه الله- حمل ذلك على إنزال الملائكة، يعني وما جعله الله -أي المدد بالملائكة الذي في قوله: **{أَنِّي مُمَدِّدٌ}** [٩] سورة الأنفال]- إلا بشري لكم، وهذا هو المشهور وهو الأليق بالسياق.

ومن أهل العلم من جعل ذلك يرجع إلى التسويم، يعني مسومين وما جعله الله إلا بشري لكم، وهذا لا يظهر كل الظهور والله تعالى أعلم، وعلى كل حال هذه الآية يستدل بها من يقول: إن الملائكة لم تقا تل لا في بدر، ولا في غير بدر، وقالوا: إن الله -عز وجل- ذكر ذلك بصيغة الحصر، يعني وما جعله -أي الإنزال- إلا بشري، وأقوى صيغة من صيغ الحصر هي النفي والاستثناء، وهو هنا لم يذكر القتال وإنما البشارة وطمأنينة القلب، لكن على كل حال السياق هنا يدل على أن النصر لا ينتزل من جهة سوى الله -تبارك وتعالى- فالذين يُنزلون النصر ليسوا هم الملائكة ولا غير الملائكة؛ وذلك من أجل أن ترتبط القلوب بالله -جل جلاله- فحينما يذكر هذه القضية لتحقيق هذا المعنى فإن ذلك لا يدل على نفي أمور أخرى حصلت مع تنزيل الملائكة -عليهم السلام- ولذلك فإن الأرجح من قولي العلماء وهو المشهور الذي عليه عامة أهل العلم أن الملائكة قاتلوا في يوم بدر.

ومما يحتج به من يقول: إن الملائكة لم تقا تل، من النظر أنهم يقولون: ما الحاجة أن ينزل الله ألفاً أو ثلاثة آلاف أو خمسة آلاف، وملك واحد يمكن أن يسحق هؤلاء جميعاً ويقنتل الأرض التي يطئون عليها؟ يقال لهم: إن الله -عز وجل- له في ذلك حكم بالغة، وإلا فإن النصر يأتي من غير تنزيل الملائكة أصلاً، فالله -عز وجل- يخذلهم ويموتون في أماكنهم، والله -عز وجل- يقول: **{وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ}**

لِيَبْلُؤَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا { (٤) سورة محمد] فالمقصود أن مثل هذه الأسئلة والإشكالات لا ترد؛ لأن الله حكماً، والله عز وجل - يفعل ما يشاء لا معقب لحكمه.

ثم قال تعالى: **{لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا}** { (١٢٧) سورة آل عمران] أي: أمركم بالجهاد والجلاد، لما له في ذلك من الحكمة في كل تقدير، ولهذا ذكر جميع الأقسام الممكنة في الكفار المجاهدين، فقال: **{لِيَقْطَعَ طَرَفًا}** { (١٢٧) سورة آل عمران] أي: ليهلك أمة **{مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْتَبُهُم}** { (١٢٧) سورة آل عمران]".
في قوله تعالى: **{لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا}** ابن كثير - رحمه الله - ذكر معنى عام، أي أنه أمركم بالجهاد ليقطع طرفاً من الذين كفروا.

وبعض أهل العلم يربط ذلك بكلام قبله فيقول: إنه متعلق بقوله: ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة ليقطع طرفاً من الذين كفروا، وذلك بما حصل من قتل سبعين منهم وأسر سبعين، وهذا الذي اختاره كبير المفسرين ابن جرير الطبري - رحمه الله - أي أنه متعلق بقوله: ولقد نصركم الله ببدر، أي إن الذي حصل في بدر من الانتصار كان من أجل أن يقطع طرفاً من الذين كفروا، وبهذا الاعتبار يكون ذلك مختصاً ببدر، لكن على كلام ابن كثير المعنى أعم من هذا وهو أن الله أمر بالجهاد من أجل حكم بالغة، ومنها ليقطع طرفاً من الذين كفروا أو يكتبهم فينقلوا خائبين فلا يحصل مقصودهم.

ومن أهل العلم من يقول: إنه متعلق بقوله: وما النصر إلا من عند الله ليقطع طرفاً، وهذا القول أبعد من الأول، والله تعالى أعلم.

وبعضهم يقول: إنه متعلق بالإمداد بالملائكة، أي يمددكم ربكم، بهؤلاء الملائكة ليقطع طرفاً من الذين كفروا، وعلى كل حال الآيات: **{وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ}** { (١٢٣) سورة آل عمران]، **{إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آفَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ}** { (١٢٤) سورة آل عمران] **{وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ}** { (١٢٦) سورة آل عمران]، **{وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ}** { (١٢٦) سورة آل عمران] **{لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا}** { (١٢٧) سورة آل عمران] فالذين قالوا: إنه متعلق بقوله: **{وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ}** { (١٢٦) سورة آل عمران] وصلوها بالتي قبلها مباشرة، أي وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم ليقطع، وأقرب هذه المعاني والله تعالى أعلم هو الأول؛ لأن ما ذكر بعده إنما هو تكملة وهو بمنزلة الشرح له، أي: ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة إذ تقول للمؤمنين أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ، وما جعله الله إلا بشري، ثم قال: حصل كل هذا ليقطع طرفاً من الذين كفروا.

فقال: **{لِيَقْطَعَ طَرَفًا}** { (١٢٧) سورة آل عمران] أي: ليهلك أمة.

"ليهلك أمة" يعني طائفة، أي فريقاً من الكفار.

"{مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْتَبُهُم}" { (١٢٧) سورة آل عمران] أي: يخزيهم ويردهم بغيظهم".

الكتب هو الخزي والحزن أي: إنه يخزيهم ويحزنهم بما يقع لهم من المصائب.

"أي: يخزيهم ويردهم بغيظهم، لما لم ينالوا منكم ما أرادوا؛ ولهذا قال: **{أَوْ يَكْتَبُهُمْ فَيَنْقَلِبُوا}** { (١٢٧) سورة آل عمران] أي: يرجعوا **{خَائِبِينَ}** لم يحصلوا على ما أمّلوا.

ثم اعترض بجملة دلت على أنّ الحكم في الدنيا والآخرة له وحده لا شريك له فقال تعالى: **{لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ}** [سورة آل عمران] أي: بل الأمر كله إليّ، كما قال تعالى: **{فَاتِمَّا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ}** [سورة الرعد] وقال: **{لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ}** [سورة البقرة] وقال: **{إِنَّكَ لَأَنْتَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ}** [سورة القصص].

قال محمد بن إسحاق في قوله: **{لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ}** أي: ليس لك من الحكم شيء في عبادي إلا ما أمرتك به فيهم.

ثم ذكر تعالى بقية الأقسام فقال: **{أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ}** [سورة آل عمران] أي: مما هم فيه من الكفر ويهديهم بعد الضلالة **{أَوْ يُعَذِّبَهُمْ}** أي: في الدنيا والآخرة على كفرهم وذنوبهم؛ ولهذا قال: **{فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ}** أي: يستحقون ذلك".

هنا الآية: **{لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ}** [سورة آل عمران] قال قبلها: **{لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْتَبَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ}** [سورة آل عمران].

بعض أهل العلم يقول: إن قوله تعالى: **{أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ}** معطوف على قوله: **{أَوْ يَكْتَبَهُمْ}** وأن "أو" بمعنى إلا، فيكون الكلام بمعنى إلا أن يتوب عليهم، أي: ليقطع طرفاً من الذين كفروا أو يكتبهم إلا أن يتوب عليهم. وعلى كل حال يمكن أن تفهم الآية من غير هذا التفسير الذي لا يتبادر إلى ذهن السامع، ويحمل الكلام على ظاهره في أنهم قد يقع لهم هذا أو هذا أو هذا، وأن الله - عز وجل - يتصرف فيهم كما يشاء فهم عبيده، وليس الأمر إليك وإنما عليك البلاغ.

والمقصود بقوله: **{أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ}** أي بالهداية إلى الإيمان؛ لأن الله - عز وجل - لا يتوب على الكافرين، ولكن توبته على عبده تأتي بمعنى أن يوفقه للتوبة والرجوع إليه، وتأتي بمعنى قبول التوبة، والتوبة معناها الرجوع فتوبة الله - عز وجل - على العبد أي برجوعه على عبده بالقبول والمغفرة فقبل توبته، وغفر ذنبه. "وروى البخاري عن سالم عن أبيه - رضي الله تعالى عنه - أنه سمع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول إذا رفع رأسه من الركوع في الركعة الثانية من الفجر: **((اللهم العن فلاناً وفلاناً))** بعدما يقول: **((سمع الله لمن حمده، ربنا ولك الحمد))** فأنزل الله تعالى: **{لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ}** الآية [سورة آل عمران]. وهكذا رواه النسائي^(١).

وروى الإمام أحمد عن سالم عن أبيه - رضي الله تعالى عنه - قال: سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول: **((اللهم العن فلاناً، اللهم العن الحارث بن هشام، اللهم العن سهيل بن عمرو، اللهم العن صفوان بن أمية))**^(٢) فنزلت هذه الآية: **{لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ}** [سورة آل عمران] فتب عليهم كلهم.

^١ - أخرجه البخاري في كتاب التفسير - باب تفسير سورة آل عمران (٤٢٨٣) (ج ٤ / ص ١٦٦١). والنسائي في كتاب صفة الصلاة - باب لعن المنافقين في القنوت (١٠٧٨) (ج ٢ / ص ٢٠٣).

^٢ - أخرجه الترمذي في كتاب تفسير القرآن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم - باب تفسير سورة آل عمران (٣٠٠٤) (ج ٥ / ص ٢٢٧) وأحمد (٥٦٧٤) (ج ٩ / ص ٤٨٦) وصححه الألباني في صحيح الترمذي برقم (٣٠٠٤).

وروى البخاري أيضاً عن أبي هريرة، -رضي الله تعالى عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كان إذا أراد أن يدعو على أحد أو يدعو لأحد قنت بعد الركوع، وربما قال إذا قال: سمع الله لمن حمده، ربنا ولك الحمد: ((اللهم أنج الوليد بن الوليد وسلمة بن هشام وعياش بن أبي ربيعة، والمستضعفين من المؤمنين، اللهم اشد وطأتك على مضر، واجعلها عليهم سنين كسني يوسف)) يجهر بذلك، وكان يقول في بعض صلاته في صلاة الفجر: ((اللهم العن فلانا وفلاتنا)) لأحياء من أحياء العرب، حتى أنزل الله: **{لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ}** الآية [سورة آل عمران] (٣).

على كل حال قوله: **{لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ}** مع هذه الأسباب المذكورة في النزول فهم منها بعض أهل العلم أن النهي إنما هو عن ذلك كله، وهذا يحتاج إلى نظر وتحليل؛ وذلك أنه يحتمل أن يكون نهاه؛ لأنه -عز وجل- سبق في علمه وقدره هداية هؤلاء الناس، فنهاه عن الدعاء عليهم، وعلى كل حال يكون ذلك مختصاً بهذه الواقعة جمعاً بين الأدلة، وذلك أن النبي -صلى الله عليه وسلم- دعا على الكفار في مواطن متعددة في الصلاة وفي خارج الصلاة، ودعا -صلى الله عليه وسلم- على قبائل، ودعا على أشخاص، ولعن رجالاً بأعيانهم، وإنما نهي في هذا المواطن، كما أنه -عليه الصلاة والسلام- دعا لأقوام في القنوت في الصلاة، فالدعاء على الكفار ولعنهم هذا أمر لا إشكال فيه، وهو أمر دلَّ عليه الكتاب والسنة، ونوح -عليه الصلاة والسلام- قال: **{رَبِّ لَأَنْتَ عَلَيَّ الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا}** [سورة نوح] وقال موسى وهارون -عليهما الصلاة والسلام-: **{رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ}** [سورة يونس] فدعوا عليهم بالربط على القلوب حتى لا يؤمنوا، وليس هناك شيء أبلغ من هذا، والأدلة على هذا كثيرة جداً، والذين يتكفون ويقولون على الله -عز وجل- بلا علم وتضييق صدورهم من الدعاء على الكفار ترد عليهم مثل هذه النصوص، وقد يدعو النبي -عليه الصلاة والسلام- لأقوام، وكل مقام بحسبه، فالمقام تارة يقتضي الدعاء عليهم وتارة يقتضي الدعاء لهم، فلننا مطالبين دائماً بالدعاء للكفار بالهداية، بل أحياناً قد ندعو على كافر أن الله لا يهديه ولا يوفقه، وأن يميته على الكفر، وأن يختم له بخاتمة السوء، وأن يأخذه ويرينا فيه عجائب قدرته وهذا مثل ما دعا موسى وهارون -عليهما الصلاة والسلام- على فرعون، ففي كل مقام حال مناسبة، والله تعالى أعلم.

"وقال البخاري: قال حميد وثابت عن أنس بن مالك -رضي الله تعالى عنه-: "شُجَّ النبي -صلى الله عليه وسلم- يوم أحد، فقال: ((كيف يفلح قوم شجوا نبيهم؟)) فنزلت: **{لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ}** [سورة آل عمران] (٤).

³ - أخرجه البخاري في كتاب التفسير - باب تفسير سورة آل عمران (٤٢٨٤) (ج ٤ / ص ١٦٦١) ومسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة - باب استحباب القنوت في جميع الصلاة إذا نزلت بالمسلمين نازلة (٦٧٥) (ج ١ / ص ٤٦٦) واللفظ للبخاري.

⁴ - أخرجه البخاري معلقاً في كتاب المغازي - باب **{لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ}** [سورة آل عمران] (ج ٤ / ص ١٤٩٣) وأخرجه مسلم عن أنس في كتاب الجهاد والسير - باب غزوة أحد (١٧٩١) (ج ٣ / ص ١٤١٧).

وروى الإمام أحمد عن أنس -رضي الله تعالى عنه- أن النبي -صلى الله عليه وسلم- كسرت رباعيته يوم أحد، وشج في جبهته حتى سال الدم على وجهه، فقال: **(كيف يفلح قوم فعلوا هذا بنبيهم وهو يدعوهم إلى ربهم عز وجل؟)** فأنزل الله: **{لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ}** [١٢٨] سورة آل عمران^(٥) ورواه مسلم^(٦).

هذه الروايات المتعددة في سبب النزول روايات صحيحة وهي صريحة، ومعنى الصريح من أسباب النزول هو ما ذكر فيه سبب أو حادثة أو سؤال، ثم قال بعد: فأنزل الله كذا، أو فنزلت الآية، فهذا كله من قبيل الصريح، تارة بأنها نزلت في لعن النبي -صلى الله عليه وسلم- لرجال من قريش بأعيانهم، أو في دعائه -صلى الله عليه وسلم- على قبائل، أو فيما حصل له -صلى الله عليه وسلم- في أحد حينما قال ما قال، هذه كلها أسباب صحيحة وصريحة، فإن تقارب الزمان كان ذلك متقارباً، والقاعدة أنه إذا تعددت أسباب النزول فإنه ينظر إلى الثبوت ثم نختار الصحيح، ثم العبارة فنختار الصريح، ثم إن تقارب الزمان حُمِلت الآية على هذه الأسباب جميعاً، يقال: حصل كذا، وحصل كذا، فنزلت الآية بعد هذه الأشياء جميعاً، وإن تباعد حُمِل على تكرر النزول، أي أنها نزلت في أكثر من مناسبة، وبعض أهل العلم في مثل هذا الموطن يعتمد إلى الترجيح بطريقة من طرق الترجيح الكثيرة، كأن يرجح مثلاً رواية الصحيحين، أو رواية البخاري أو نحو هذا، ولكن الترجيح فيه إهدار لأحد الأدلة والجمع مطلوب ما أمكن، فمثل هذه الأشياء حينما دعا النبي -صلى الله عليه وسلم- على هؤلاء من قريش وغيرهم وما وقع في أحد، هذه القضايا متقاربة، حيث إن هناك أشياء وقعت بعد أحد فينظر في مثل هذا.

ثم قال تعالى: **{وَاللَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ}** [سورة آل عمران] أي: الجميع ملك له، وأهلها عبيد بين يديه **{بِغْفَرٍ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ}** [سورة آل عمران] أي هو المتصرف فلا معقب لحكمه، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون، **{وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ}** [سورة آل عمران].

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} * وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ * وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} * وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} * وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ} * أُولَٰئِكَ جَزَاءُ هُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ} [سورة آل عمران].

هذه الآية تتحدث عن الربا، وسياق الآيات جميعاً يتحدث عن غزوة أحد، فإدخال هذه الآية في وسط الآيات التي تتحدث عن أحد هل له وجه يظهر لنا؟ هل يمكن أن نستشف من هذا شيئاً؟ ما وجه الارتباط في المعنى؟

⁵ - أخرجه الترمذي في كتاب تفسير القرآن عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- باب تفسير سورة آل عمران (٣٠٠٢) (ج ٥ / ص ٢٢٦) وأحمد (١١٩٧٤) (ج ٣ / ص ٩٩) وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

⁶ - صحيح مسلم عن أنس في كتاب الجهاد والسير - باب غزوة أحد (١٧٩١) (ج ٣ / ص ١٤١٧).

حينما ذكر الله - عز وجل - آيات الصيام ثم ذكر في أثناءها **{وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ}** [سورة البقرة] قال العلماء: إن للصوم مزية وللدعاء تعلق خاص بالصيام أو برمضان لوجود ليلة القدر مثلاً، أو لأن للصائم دعوة مستجابة؛ لذلك دخلت آية الدعاء بين آيات الصيام.

ووجه ذكر معصية التعامل بالربا أثناء الحديث عن غزوة أحد يمكن أن يكون سببه ذكر المعصية التي سببت الهزيمة.

ويمكن أن يقال أيضاً: إن الربا حرب لله ولرسوله كما قال تعالى في الآية الأخرى: **{فَأَذْنُوبًا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ}** [سورة البقرة] فالموطن التي يُتعاظى فيها الربا هي قلاع لحرب الله ورسوله، والمشتغلون الموظفون فيها هم جنود في تلك القلاع يحاربون الله ورسوله، فإذا كان ذلك موجوداً في المجتمع، فكيف ينتظر النصر من يحارب الله ورسوله؟، فهذه الهزيمة التي وقعت وما ذكر من أسباب النصر ذكر في أثناءه الربا الذي خصه الله - عز وجل - من بين سائر الذنوب بأنه حرب لله ولرسوله - صلى الله عليه وسلم - والله أعلم..

"يقول تعالى ناهياً عباده المؤمنين عن تعاظي الربا وأكله أضعافاً مضاعفة".

قوله تعالى: **{لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً}** [سورة آل عمران] فهم منه بعض المحللين لكثير من أنواع الربا أن الذي نهى عنه هو أن يؤكل الربا بهذه الصفة، فقالوا: هذا الذي لا يجوز وما عداه جائز، أي أنه إذا كان الذي يؤخذ نسبته خمسة بالمائة أو سبعة بالمائة أو عشرة بالمائة وما أشبه هذا فليس هذا أضعافاً مضاعفة!! لكن هذا الفهم الأعجمي ليس صحيحاً وإنما الصحيح أن يقال: إنه -تبارك وتعالى- ذكر صورة مقرزة هي من أقبح صور الربا التي تفتك في المجتمع وهي أخذة بهذه الصفة حيث كان ذلك فاشياً في الجاهلية، وإلا فالمقصود أن الربا بجميع أنواعه محرم سواء كان بهذه الصفة أو بغيرها والمفهوم هنا غير معتبر؛ لأن من المواطن التي لا يعتبر فيها مفهوم المخالفة أن تكون الآيات نزلت على وفاق واقع معين، وهذه الآية نزلت بناءً على وفاق معين كان فاشياً في الجاهلية وهو هذه الصورة المذكورة، ومثل هذه الآية قوله تبارك وتعالى: **{لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ}** [سورة آل عمران] حيث نزلت بسبب أناس والوا الكفار من دون المؤمنين، فلو أن إنساناً قال: أنا أوالي الكفار والمؤمنين معاً، نقول له: لا، فالآية لا مفهوم لها؛ لأنها نزلت على وفاق واقع معين، كما قال في المراقي:

كذا دليل للخطاب انضافا	ودع إذا الساكت عنه خافا
أو جهل الحكم أو النطق انجلب	للسؤل أو جرى على الذي غلب
أو امتتان أو وفاق الواقع	والجهل والتأكيد عند السامع

هذه هي الحالات التي لا يعتبر فيها مفهوم المخالفة، فالأصل أنه حجة عند الجمهور، لكن في حالات معينة لا يكون فيها حجة كما في هذه الآية..

"كما كانوا يقولون في الجاهلية -إذا حل أجل الدين: إما أن يقضي وإما أن يربي، فإن قضاه وإلا زاده في المدة وزاده الآخر في القدر، وهكذا كل عام، فربما تضاعف القليل حتى يصير كثيراً مضاعفاً".

أي أنه بهذه الطريقة يصير أضعافاً مضاعفة حيث يصير المال المطلوب سداده أكبر من أصل المال المقرض.

"وأمر تعالى عباده بالتقوى لعلهم يفلحون في الأولى والأخرى ثم توعدهم بالنار وحذرهم منها، فقال تعالى: **{وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ* وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ}** [سورة آل عمران]".

يقول تعالى: **{وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}** [سورة البقرة]، ولفظة "لعل" إما أن تحمل على التعليل وإما أن تحمل على معنى الترجي، ومعلوم أن الله لا يحصل منه الترجي؛ لأن الترجي إنما يقع ممن لا يعلم عواقب الأشياء لكنه يترجى وقوع الشيء ولا يدري هل يقع أم لا يقع.

وإذا فسرت "لعل" بأنها للترجي في مثل هذه الآية، فيكون ذلك باعتبار حال المخاطب، يعني على رجائكم، فقوله تعالى مثلاً: **{فَقُولُوا لَهُ قَوْلًا لِنِنَّا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى}** [سورة طه] يعني على رجائكما يا موسى وهارون -عليهما الصلاة والسلام-.

ثم ندبهم إلى المبادرة إلى فعل الخيرات والمسارة إلى نيل القربات، فقال تعالى: **{وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ}** [سورة آل عمران] أي: كما أعدت النار للكافرين.

وقد قيل: إن معنى قوله: **{عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ}** تنبيها على اتساع طولها، كما قال في صفة فرش الجنة: **{بِطَانِنَهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ}** [سورة الرحمن] أي: فما ظنك بالظواهر؟.

وجه الارتباط بين المثالين أنه في هذه الآية: **{بِطَانِنَهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ}** يقصد أنه ليس بحاجة إلى أن يبين حال الظواهر، بمعنى أنه إذا كانت البواطن التي توضع عادة من وضع الثياب من الأقمشة التي لا قيمة لها؛ لأنها لا تظهر للناس جعلت من إستبرق فما بالك بالظواهر؟ إذاً: هذه لا يُحتاج أن توصف.

وإذا كان تراب الجنة من مسك، والزعفران حشيش نابت فيها فما بالك بجواهرها، فالمقصود أن هناك أشياء ينبه بها على أشياء.

وهنا في قوله -تبارك وتعالى-: **{عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ}** يحتمل معنيين:

المعنى الأول: بما أن السماوات جمع، والأرض جنس يصدق على الأرضين السبع، فمن أهل العلم من يقول: إن المراد أن هذه السماوات العظيمة إذا بسطت كبسط الثياب ووصل بعضها ببعض، وبسطت الأرض بطبقاتها السبع ووصلت وصل الثياب فهذا هو عرض الجنة.

المعنى الثاني: من أهل العلم من يقول: إن ذلك على طريقة العرب في المبالغة، فإذا أرادوا ذكر سعة شيء ذكروا مثل هذا، فقوله: **{عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ}** أي أنها واسعة العرض.

ومن أهل العلم من قال: إن ذكر العرض يغني عن ذكر الطول؛ لأن العرض عادة أقل من الطول، والعرب تذكر عرض الشيء ليفهم السامع قدر طوله، فإذا كان العرض بهذا المقدار **{عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ}**، إذاً: فطولها لا شك أنه أعظم من هذا، ولكن هذا لا يجزم به هنا حيث لا يلزم أن تكون الجنة مستطيلة.

والعلماء يتكلمون في الأفلاك أن لها صفة الكروية، وأن العرش بمنزلة القبة أو بمنزلة السقف للجنة، والنبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إذا سألتكم الله فاسألوه الفردوس الأعلى فإنه أعلى الجنة وسقفه عرش

الرحمن))^(٧) وذكر أنه تفجر منه أنهار الجنة، فلا يلزم أن تكون الجنة مستطيلة، لكن فهم بعض أهل العلم من ذكر العرض وأنه بهذه المثابة من الاتساع أن ذلك دليل على أن الطول أعظم، وهذا لا يلزم؛ فالعرب قد تذكر العرض في أغلب كلامها، والله أعلم.

"وقيل: بل عرضها كطولها؛ لأنها قبة تحت العرش، والشيء المقرب والمستدير عرضه كطوله، وقد دل على ذلك ما ثبت في الصحيح: ((إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس فإنه أعلى الجنة، وأوسط الجنة، ومنه تفجر أنهار الجنة، وسقفه عرش الرحمن))^(٨)، وهذه الآية كقوله تعالى في سورة الحديد: **{سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ}** الآية [سورة الحديد]."

قوله: **{كَعَرْضِ السَّمَاءِ}** السماء هنا جنس والجنس يصدق على الواحد والكثير فلا إشكال بين هذه الآية وآية آل عمران: **{عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ}** [سورة آل عمران].

"روى البزار عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: جاء رجل إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقال: رأيت قوله تعالى: **{وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ}** [سورة آل عمران] فأين النار؟ قال: ((أرأيت الليل إذا جاء لبس كل شيء فأين النهار؟)) قال: حيث شاء الله، قال: ((وكذلك النار تكون حيث شاء الله عز وجل))^(٩)، وهذا يحتمل معنيين:

أحدهما: أن يكون المعنى في ذلك أنه لا يلزم من عدم مشاهدتنا الليل إذا جاء النهار ألا يكون في مكان وإن كنا لا نعلمه، وكذلك النار تكون حيث يشاء الله عز وجل.

الثاني: أن يكون المعنى أن النهار إذا تغشى وجه العالم من هذا الجانب، فإن الليل يكون من الجانب الآخر، فكذلك الجنة في أعلى عليين فوق السماوات تحت العرش وعرضها كما قال الله -عز وجل-: **{كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ}** [سورة الحديد] والنار في أسفل سافلين فلا تنافي بين كونها كعرض السماوات والأرض، وبين وجود النار، والله أعلم.

على كل حال هذه الأمور الغيبية الإنسان لا يخوض فيها، وإنما يؤمن بها كما أخبر الله -عز وجل- .
ثم ذكر تعالى صفة أهل الجنة فقال: **{الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ}** [سورة آل عمران] أي: في الشدة والرخاء والمنشط والمكره والصحة والمرض، وفي جميع الأحوال، كما قال: **{الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً}** [سورة البقرة] والمعنى أنهم لا يشغلهم أمر عن طاعة الله تعالى والإنفاق في مرضيه والإحسان إلى خلقه من قراباتهم وغيرهم بأنواع البر."

يعني قدموا الإحسان والبذل والنفقة حيث دعت الحاجة سواء كان ذلك في الليل أو في النهار، وينفقون في السراء وفي الضراء، ومن الناس من يبخل في حال السراء ولا ينشط للنفقة، ومن الناس من يمسك في حال الضراء ويزداد خوفه على ما في يده وتتتابه ألوان الوسواس فيزداد حرصه فلا يبذل شيئاً.

7 - سيأتي تخريجه.

8 - أخرجه أحمد (٢٢٧٩٠) (ج ٥ / ص ٣٢١) وأصله في البخاري في كتاب الجهاد والسير - باب درجات المجاهدين في سبيل الله يقال هذه سبيلي وهذا سبيلي (٢٦٣٧) (ج ٣ / ص ١٠٢٨).

9 - أخرجه ابن حبان (١٠٣) (ج ١ / ص ٣٠٦) والحاكم (١٠٣) (ج ١ / ص ٩٢) وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم.

"وقوله تعالى: **{ وَالكَاطِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ }** [سورة آل عمران] أي: إذا ثار بهم الغيظ كظموه بمعنى كتموه فلم يُعملوه وعفوا مع ذلك عن أساء إليهم.

وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: **((ليس الشديد بالصرعة، ولكن الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب))**^(١٠) وقد رواه الشيخان.

وروى الإمام أحمد عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: **((من أنظر معسراً أو وضع له وقاه الله من فيح جهنم، ألا إن عمل الجنة حَزَنٌ بربوة -ثلاثاً- ألا إن عمل النار سهل بسهوة))**.

قوله: **((حَزَنٌ بربوة))** الربوة هي المكان المرتفع والحزن هو الصعب أو الذي يصعب المشي فيه فهو ليس سهلاً، والمعنى أن ذلك يحتاج إلى جهد ومجاهدة ومشقة وصبر وتحمل.

وقوله: **((ألا إن عمل النار سهل بسهوة))** السهوة هي الأرض ذات التربة اللينة السهلة التي يسهل المشي عليها دون مشقة.

"**((من أنظر معسراً أو وضع له وقاه الله من فيح جهنم، ألا إن عمل الجنة حَزَنٌ بربوة -ثلاثاً- ألا إن عمل النار سهل بسهوة، والسعيد من وقى الفتن، وما من جرعة أحب إلى الله من جرعة غيظ يكظمها عبد، ما كظمها عبد لله إلا ملاً جوفه إيماناً))**^(١١) انفرد به أحمد، وإسناده حسن ليس فيه مجروح، ومنتنه حسن".

وبعض أهل العلم ضعف الحديث؛ لأن فيه رجلاً مجهولاً، لكن قوله: **((من أنظر معسراً))** يوجد ما يشهد له^(١٢)، ولهذا فهو يحتمل التحسين، لكن إسناده عند الإمام أحمد فيه رجل مجهول.

"وروى الإمام أحمد عن سهل بن معاذ بن أنس عن أبيه -رضي الله تعالى عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: **((من كظم غيظاً وهو قادر على أن ينفذه، دعاه الله على رعوس الخلائق، حتى يخيره من أي الحور شاء))**^(١٣) ورواه أبو داود والترمذي، وابن ماجه، وقال الترمذي: حسن غريب.

وروى ابن مردويه عن ابن عمر -رضي الله تعالى عنهما- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: **((ما تجرع عبد من جرعة أفضل أجراً من جرعة غيظ كظمها ابتغاء وجه الله))** [رواه ابن جرير وكذا رواه ابن ماجه]^(١٤).

وهذا يشهد لبعض الحديث السابق، وهذا هو المعتاد المعمول به.

10 - أخرجه البخاري في كتاب الأدب - باب الحذر من الغضب (٥٧٦٣) (ج ٥ / ص ٢٢٦٧) ومسلم في كتاب البر والصلة والآداب - باب فضل من يملك نفسه عند الغضب وبأي شيء يذهب الغضب (٢٦٠٩) (ج ٤ / ص ٢٠١٤).

11 - أخرجه أحمد (٣٠١٧) (ج ١ / ص ٣٢٧) وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده ضعيف جداً.

12 - صحيح مسلم في كتاب الزهد والرقائق - باب حديث جابر الطويل وقصة أبي اليسر (٣٠٠٦) (ج ٤ / ص ٢٣٠١).

13 - أخرجه أبو داود في كتاب الأدب - باب من كظم غيظاً (٤٧٧٩) (ج ٤ / ص ٣٩٤) وابن ماجه في كتاب الزهد - باب اللحم (٤١٨٦) (ج ٢ / ص ١٤٠٠) وأحمد (١٥٦٧٥) (ج ٣ / ص ٤٤٠) وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده حسن.

14 - أخرجه ابن ماجه في كتاب الزهد - باب اللحم (٤١٨٩) (ج ٢ / ص ١٤٠١) وأحمد (٦١١٤) (ج ٢ / ص ١٢٨) وصححه الألباني في صحيح الترمذي والترهيب برقم (٢٧٥٢).

"فقله تعالى: **{وَالكَاطِمِينَ الْغَيْظَ}** [سورة آل عمران] (١٣٤) أي لا يعملون غضبهم في الناس بل يكفون عنهم شرهم، ويحتسبون ذلك عند الله عز وجل.

ثم قال تعالى: **{وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ}** [سورة آل عمران] (١٣٤) أي: مع كف الشر يعفون عمن ظلمهم في أنفسهم، فلا يبقى في أنفسهم موجدة على أحد، وهذا أكمل الأحوال، ولهذا قال: **{وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ}** فهذا من مقامات الإحسان، وفي الحديث: **{ثلاث أقسم عليهن: ما نقص مال من صدقة، وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً، ومن تواضع لله رفعه الله}** (١٥).

هذا التفسير مثل ما نقول: عفت الريح الأثر إذا طمسته ومحته فلا يبقى له في النفس بقية أو أثر، وأما الصفح فهو الإعراض كما في قوله تعالى: **{فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا}** [سورة البقرة] (١٠٩) فالصفح من صفحة العنق وهو أن يُعرض الإنسان عن إساءة المسيء، وقد يُعرض الإنسان لكن يبقى في نفسه شيء، وقد يذهب الذي في النفس لكنه يحتاج إلى معاتبة لسبب أو لآخر، والذي ينبغي للمسلم أن يعفو ويصفح.

"وقوله تعالى: **{وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ}** [سورة آل عمران] (١٣٥) أي: إذا صدر منهم ذنب أتبعوه بالتوبة والاستغفار."

قوله: **{وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً}** هذا يحتمل أن يكون من قبيل الاستئناف، أي أنه كلام مستأنف جديد باعتبار أن هذه فئة أخرى غير الأولى، فالفئة الأولى أكمل، وهي فئة **{الَّذِينَ يَنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالكَاطِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ}** [سورة آل عمران] (١٣٤)، فهؤلاء أصحاب الدرجات العالية، ثم تأتي طبقة دون هؤلاء من أهل الجنة وهم الذين يحصل منهم إساءة وتقصير ولكنهم لا يصرون على ذلك بل يتوبون، وهم فئة الذين **{إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ}** [سورة آل عمران] (١٣٥) فهذا احتمال مشى عليه بعض أهل العلم، والمعنى الثاني - وهو الأقرب والله تعالى أعلم، واختاره ابن جرير - رحمه الله -: أن ذلك من قبيل العطف على ما سبق، وأن هذه الأوصاف جميعاً لطائفة واحدة، أي أنهم بهذه المثابة من الإحسان والبذل والإنفاق والعفو والكظم للغيظ، وإذا بدر منهم شيء فإنهم لا يصرون على ذلك، بل يبادرون إلى التوبة.

"روى الإمام أحمد عن أبي هريرة - رضي الله تعالى عنه - عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: ((إن رجلاً أذنب ذنباً، فقال: رب إني أذنبت ذنباً فاغفره، فقال الله - عز وجل -: عبي عمل ذنباً فعلم أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به، قد غفرت لعبدي، ثم عمل ذنباً آخر فقال: رب، إني عملت ذنباً فاغفره، فقال - تبارك وتعالى -: علم عبي أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به، قد غفرت لعبدي، ثم عمل ذنباً آخر فقال: رب، إني عملت ذنباً فاغفره لي، فقال الله - عز وجل -: علم عبي أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به، قد غفرت لعبدي، ثم عمل ذنباً آخر فقال: رب، إني عملت ذنباً فاغفره لي فقال الله - عز وجل -: علم عبي أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به، أشهدكم أي قد غفرت لعبدي، فليعمل ما شاء)) [أخرجه في الصحيح بنحوه] (١٦)."

¹⁵ - أخرجه أحمد (١٨٠٦٠) (ج ٤ / ص ٢٣١) وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٣٠٢٤).

¹⁶ - أخرجه البخاري في كتاب التوحيد - باب قول الله تعالى: **{يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ}** [سورة الفتح] (٧٠٦٨) (ج ٦ / ص ٢٧٢٥) وأحمد (٧٩٣٥) (ج ٢ / ص ٢٩٦).

يذكر هذا الحديث ونظائره عند الكلام على الرجاء، ومثل هذه الأحاديث لا تكون مسوغاً للإنسان أن يستمرى الذنوب والمعاصي، وإنما هي في الإنسان الذي تغلبه نفسه فيتوب ولا يصر على الذنب ثم تغلبه نفسه فيبادر إلى التوبة، فمثل هذه النصوص يعالج بها اليائس والقانط وأولئك الجهال الذين يأتيهم الشيطان، ويقول: أنتم تعملون ذنوباً ثم تظهرون للناس بحلية وصورة أخرى فأنتم تتأفقون، وهكذا يحرضهم على ترك العمل الصالح بالكلية، فمثل هؤلاء تقيدهم مثل هذه الأحاديث، لكن هناك أحاديث ونصوص وآيات أخرى تدل على شدة أخذ الله - عز وجل - وعقابه ونكاله، فيجب أن تجمع هذه النصوص مع تلك.

"وقد روى عبد الرزاق عن أنس بن مالك -رضي الله تعالى عنه- قال: بلغني أن إبليس حين نزلت: **{وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ}** الآية [سورة آل عمران] بكى.

وقوله تعالى: **{وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ}** [سورة آل عمران] أي: لا يغفرها أحد سواه.

وقوله: **{وَلَمْ يَصِرُوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ}** [سورة آل عمران] أي: تابوا من ذنوبهم ورجعوا إلى الله عن قريب، ولم يستمروا على المعصية ويصروا عليها غير مقلعين عنها".

قوله: **{ذَكَرُوا اللَّهَ}** [سورة آل عمران] يحتمل أن يكون ذكروه بألسنتهم، ويحتمل أنهم ذكروه بقلوبهم، أو ذكروا وعده ووعيده وعظمته وما ينتظرهم من الوقوف بين يديه، فحصل منهم الاستدراك والرجوع والندم والتوبة، ومعلوم أنه ليس من شرط التوبة أن يذكر الإنسان ربه بلسانه إذا أذنب، ولكن المحرك للتوبة ابتداءً هو أن يتذكر الإنسان عظمة الله - عز وجل - وما وقع في حقه من الإساءة والتجرؤ عليه وعلى حدوده، فيكون ذلك دافعاً له إلى الندم؛ لأن الندم أمر قد يطلبه المكلف ولا يحصل له، فالخطاب إذا توجه إلى المكلف بشيء لا يدخل تحت طوقه فإنه يتوجه إلى سببه أو إلى آثاره، فالندم يكون بتذكر عظمة الله - عز وجل - المؤدي إلى الندم، بمعنى أنهم لم يستمروا على الغفلة، فيحصل لهم الإبصار بسبب ذلك.

"وقوله: **{وَلَمْ يَصِرُوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ}** [سورة آل عمران] أي: تابوا من ذنوبهم ورجعوا إلى الله عن قريب ولم يستمروا على المعصية ويصروا عليها غير مقلعين عنها، ولو تكرر منهم الذنب تابوا عنه.

وقوله: **{وَهُمْ يَعْلَمُونَ}** قال مجاهد وعبد الله بن عبيد بن عمير: **{وَهُمْ يَعْلَمُونَ}** أن من تاب تاب الله عليه.

وهذا كقوله تعالى: **{أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ}** [سورة التوبة] وكقوله: **{وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا}** [سورة النساء] ونظائر هذا كثيرة جداً.

ويحتمل معنى آخر ذكره بعض أهل العلم، واختاره ابن جرير -رحمه الله- ولعله هو المتبادر، وهو أن معنى وهم يعلمون، أي: بسوء صنيعهم وقبح عملهم وجناباتهم، فمعنى ذلك أنهم لم يفعلوا هذا الفعل القبيح جهلاً منهم بقبحه وأن الله - عز وجل - حرمه وإنما المقصود ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون قبح هذا، فإنهم إن كانوا يعلمون أن الله حرمه فهم يبادرون إلى التوبة منه.

"وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو -رضي الله تعالى عنهما- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال وهو على المنبر: ((ارحموا ترحموا، واغفروا يغفر لكم، ويل لأقماع القول، ويل للمصرين الذين يصرون على ما فعلوا وهم يعلمون))^(١٧) تفرد به أحمد.

ثم قال تعالى -بعد وصفهم بما وصفهم به-: {أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ} [سورة آل عمران] أي: جزاؤهم على هذه الصفات {مَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ} [سورة آل عمران] أي: من أنواع المشروبات {خَالِدِينَ فِيهَا} أي: ماكتين فيها {وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ} يمدح تعالى الجنة".

17 - أخرجه أحمد (٦٥٤١) (ج ٢ / ص ١٦٥) وإسناده حسن كما قال الأرنؤوط.